مصوّر إيطالي واكب الثورة السورية تعرض أعماله في بيروت

أليسيو رومنزي «يلتقط» الموت في حياة حمص

□ بيروت – محمد غندور

■ من يُتابع وسائل الإعلام الرسمية في سورية، يشعر بأن المواطنين يعيشون في أمان وسلام، وأن الحرب المتداولة بدعة غربية. ومن يتابع وسائل الإعلام العالمية، يُدرك أن محافظات ومدناً باتت انقاضاً، فيما يسقط عشرات الشهداء يومياً ويجرح المئات.

قد يصاب المشاهد او القارئ، لدى متابعته هذه الأخبار، بالحيرة: من يُصدّق؟ وأي إعلام هو الأكثر مهنية وشفافية؟ لكن زائر معرض المصور الإيطالي اليسيو رومنزي في هنغار «امم» في ضاحية بيروت الجنوبية، يتلمس الحقيقة موثقة.

خمس طفلات يمشين على طريق هرب منه الإسفلت، وسط رمل وخراب. يُمسكن أيدي بعضهن البعض خوفاً من المجهول، او خوفاً من قذيفة قد تسقط فجأة، فتفرّقهن إلى الأبد. قد يكنّ شقيقات فقدن عائلتهن خلال القصف، او ربما صديقات يتيمات الآن. احضرت إحداهن دميتها الصغيرة، او ما تبقى من طفولتها. فبعد يُتمها، ستتحوّل الطفلة، التي لم تتجاوز العاشرة من عمرها، عجوزاً بذاكرة واسعة ومخيلة رامية ستترك طفولتها في بيتها المهدّم، ومع مغادرتها ستصبح الذكرى حكاية تخبرها لاحقاً لأولادها، إذا كتب لها النجاة من مجزرة قد تقع في الطريق فتفتك بها وبقريناتها.

حاول رومنزي، من خلال اعماله، إظهار معاناة الناس، واثر الأزمة السورية على الحياة اليومية. لم يكن طرفاً، ولم يناصر جهة معينة. جال بعينه – الكاميرا في انحاء مدينتي القصير وحمص (غرب سورية) من منطلق إنساني قبل واجبه المهني، ليكتب بالصورة، ويوثّق بشاعة الأفعال التي يقدم عليها النظام في حق مواطنيه.

تنبعث من أعمال المصوّر الإيطالي رائحة الموت، وتعج صوره بالجنازات وأشياء تركها الشهداء ورحلوا، كالأحذية والرصاص والأدوية. تابع رومنزي حالات إسعاف المصابين وقصد المستشفى الحكومي، فاظهر، بفنية جمالية وتوثيقية في آن، النقص في اللوازم الطبية وحيرة الأطباء. «التقط» الجثث المنتشرة في كل مكان، في المنازل والطرق والمستشفيات ومحال بيع الخضار، وبالعبسة جمّد صرخة ابن يحتضن جثة أبيه، ودمعة من عين واحدة، لأمّ فقدت عينها الثانية.

يعتبر رومنزي من ابرع وانشط المصوّرين المحترفين الذين وثّقوا اوجاع السوريين. انجز عمله الميداني، من دون ان يعرض وجوه المقاتلين ولا قصصهم، إذ ركّز على الشق «المرئي» من المأساة وراعى، في الوقت نفسه، المحاذير الأمنية. شأنه شأن مصورين اجانب كثر جالوا في سورية لإلتقاط الهمّ اليومي، واحتماء الناس من قصف غالباً ما لا ينجحون في اتقائه، إضافة إلى المجازر والدمار والخراب.

ولم تكن متابعة الأحداث السورية حكراً على المصورين، إذ قصد الروائي الفرنسي من اصل اميركي جوناثان ليتل مدينة حمص لمراقبة وتدوين ملاحظات تفضح عمليات القمع والقتل الممنهجة التي يتعرّض لها ابناء المدينة على يد النظام السوري. ونشرت صحيفة «لوموند» الفرنسية جزءاً من هذه الملاحظات على شكل حلقات متسلسلة، قبل ان تعمد دار نشر «غاليمار» الباريسية إلى جمعها وإصدارها كاملة في كتاب يحمل عنوان «دفاتر حمص».

وتطرح هاتان المتابعتان، اي عمل المصوّر الإيطالي والروائي الفرنسي، لما يدور في سورية، سؤالاً مهماً: اين دور المثقف والمبدع العربي في هذه القضية، ام انه يقتصر على التنظير؟ شهد العالم العربي ربيعاً لفّ مصر وليبيا وتونس والبحرين واليمن وسورية، لكننا لم نلحظ متابعة ميدانية تُذكر لمبدع عربي، على غرار مبدعين غربيين قصدوا مناطق الصراع بحثاً عن رواية او صورة توصل اصوات الناس.

قبل وصوله إلى سورية، زار رومنزي مصر وليبيا ووثّق ثورتيهما، وهو يعمل منذ العام ٢٠٠٥ مصوّراً صحافياً مستقلاً، ونُشرت اعماله اشهر الصحف العالمية. يقول: «بخلاف مصر وليبيا، ما إنْ يصل المرء إلى سورية حتى تمتلئ رئتاه برائحة موت رفين، ويستبدّ به الشعور بأن الأعظم لم يقعْ بعد... هذا ما وَجدتني اوثّقه وارويه. عملي كمصور ان اخبر الآخرين من خلال اعمالي بما يجري. لكنني، في سورية، لم اشعر بانني اقوم بعملي فحسب، بل تملّكني الشعور بانني اؤدّي واجباً اخلاقياً». ويضيف: «في ليبيا كان هناك مقاتلون في مواجهة مقاتلين آخرين، اما في سورية، حيث يتواجه مقاتلون من الجانبين، فإن غالبية القتلى من المدنيين... الناس يُقتلون خلال حياتهم اليومية».